﴿وَنَجِّنَا بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾ [يونس: 86]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الاهتمامُ بحفظِ الأديانِ أهمُّ مِنَ الاهتمامِ بحفظِ الأبدانِ

لَمّا كانَ مِن دعوتِهم أن لا يجعلَهم اللّه تعالى فتنةً للقومِ الظّالمينَ مِن قومِ فرعونَ، زادوا هنا دعاءً مُكَمّلًا بأن يُنجيَهم برحمتِهِ وعطْفِهِ مِنَ القومِ الكافرينَ، وجعلوهُ آخرَ دعائِهم؛ فإنَّ الاهتمامَ بحفظِ الأديانِ أهمُّ مِنَ الاهتمامِ بحفظِ الأبدانِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

(1) ﴿وَنَجِّنَا﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ مِنَ الشَّيء، ومنه: نَجَا فلانٌ مِن فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُهُ، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النّمل: 53][2]، والنَّجاةُ: الخَلاصُ ممَّا فيهِ المَخافَة، ونَظيرُها السَّلامَة، والتَّنْجِيَةُ: الإنْجَاءُ: وَهُوَ جَعْلُ الغَيْرِ نَاجِيًا[3]. والنَّجْوَةُ: المكان المُرتفع المنفصل بارتفاعه عمَّا حولَه، وقيل: سُمِّي لكونه نَاجِيًا مِنَ السَّيْل، وَنَجَّيْتُهُ: تركتُه بنَجْوَة، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][4]، فالمقصود بالنَّجاة في الآية: الخلاصُ مِن ضُرٍّ وَاقِعٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيـان أهميـة الدُّعاء، وأنَّه من صِفات المتوكِّلين

أضافوا دعاءً مُكَمّلًا لما دَعَوا به، فقالوا: وخلِّصْنا - يا رَبَّنا - برَحمتِك مِن كيدهم، ومِن بَطشِ قَومِ فِرعونَ الكافرينَ وسُلطانِهم، فقدِ استعبدونا وآذَوْنا بالتَّعذيب والقتل[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/290.
(2) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/130.
(4) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/254، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/289.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ وصلِ الدّعاءِ في الآيةِ:

دعـاءُ سلامةِ الأبدانِ موصولٌ بـدعـاء سلامةِ الأديانِ

الآيةُ تُلخِّص اشتغالَهم بالدُّعاءِ لأنفسهم بالنّجاة، بعدَ دعائِهم لِأنْ يُثبّتَهُمُ اللّه تعالى على الدّينِ، وألّا يجعلَهم فتنةً؛ فوصلَ هذا الدُّعاء بما قبلَهُ بالعطفِ على الغايةِ مِنَ الكمالِ؛ لأنّهُ مُتَمِّمٌ لهُ، لا ينفصلُ عنهُ، ورُودُهُ بعدَه بحسبِ الاهتمامِ منهم، فإنَّ سلامةَ دينِهم أهمُّ عندَهم مِن سلامةِ أنفسِهم[1].

دلالةُ فِعْلِ الأمرِ المُشدَّدِ ﴿وَنَجِّنَا﴾:

طلبوا النّجاةَ مِنَ العذابِ على وجهِ المبالغةِ، فإنّ حُكْمَ الكافرِ لا يُطاقُ

قولهُ تعالى: ﴿وَنَجِّنَا﴾ أوردهُ بصيغةِ التّضعيفِ (فَعّلَ)، الدّالِّ على المبالغةِ والتّكثيرِ في غالبِ أحوالِه في لسانِ العربِ[2]؛ فطلبوا النّجاةَ على وجهِ المبالغةِ والتّكثيرِ؛ لما يرونهُ مِن سلطانِ فرعونَ وعذابِه؛ فإنّهُ كانَ يُسخِّرهم بالأعمالِ الشّاقّةِ المُرهِقة[3].

التّشديدُ يقتضي زمنًا أطولَ، وفيهِ إظهارُ الامتنانِ

ومِن مقتضياتِ التّعبيرِ بالفعلِ المُشدَّدِ ﴿وَنَجِّنَا﴾ - فضلًا عنِ المبالغةِ والتّكثيرِ - أن يكونَ الحَدَثُ بطيئًا، وأن يستغرقَ وقتًا أطولَ[4]، وفي ذلكَ مَلْمَحٌ خَفِيٌّ، وهو إظهارُ امتنانِه سبحانَهُ عليهم؛ فقد نجّاهم بعدَ طُولِ لُبْثٍ وانتظارٍ كانوا تحتَ فرعونَ وعذابِه.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿وَنَجِّنَا﴾:

النَّجْوَةُ المكانُ المرتفعُ الّذي يُلْجَأ إليهِ عندَ حدوثِ السَّيْلِ

الفعلُ المدعوُّ بهِ ليس مِن بابِ الحقيقةِ، بل هوَ مجازٌ، فإنَّ ﴿وَنَجِّنَا﴾، أي: اجعلْنا بنَجْوَةٍ ممّن يتسلّطُ علينا، ويَسُومُنا سُوءَ العذابِ؛ فالنَّجوَةُ: المكانُ المرتفعُ الّذي يَلْجَأُ النّاسُ إليهِ عندَ حدوثِ السَّيْلِ[5]، فاستعملَهُ هنا للنَّجاةِ مِن فرعونَ وقومِه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/96.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/64.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370.
(4) الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 11/129.
(5) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 10/6157.

دلالةُ الباءِ في قوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾:

رحمتهُ سببٌ لنجاتِنا ممّا نحنُ فيهِ مِنَ العذابِ والهَوانِ

قولهُم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ﴾ الباءُ هنا تُفيدُ السَّببيَّة والتّعليلَ، وهو من معانيهَا في لسانِ العربِ[1]، أي: إنَّ نجاتَنا حاصلةٌ بسببِ رحمتِكَ الّتي وسعتْ كلَّ شيءٍ، وإنعامِك علينا؛ فنحنُ المحتاجونَ لهذا الإنعام في دَفْعِ ما وَقَعَ علينا مِن ضُرٍّ وأذًى[2].

أحسَنوا التوسُّل إلى اللهِ ليستجيبَ دعاءَهُم

وتحتملُ الباءُ في قوله: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ أن تكونَ دالَّةً على الاستعانةِ[3] والتّوسُّلِ والاستعطافِ؛ فإنّ تعبيرهُم هذا يدخلُ في بابِ حُسنِ التّوسُّلِ، أي: أنّهم توسَّلوا إلى اللّه برحمتِه كي يستجيبَ دعاءَهُم[4]، وبينَ التّوسُّلِ والاستعانةِ علائقُ ووشائجُ بيِّنةٌ.

وجهُ اختيارِ صفةِ الرَّحمةِ دونَ غيرِها:

اختيارُ صفةِ الرَّحمةِ للتّبرُّؤِ مِنَ الإدلالِ بإيمانِهم؛ لأنَّ المنّةَ للّهِ عليهم بأن نجّاهم

وفي دعائهِم أن يُنَجِّيَهمُ اللّه مِنَ القومِ الكافرينَ، زادوا ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ تبرُّؤًا مِن أن يكون إيمانهُم دافعًا لاستجابةِ دعائِهم ونجاتِهم، بل للإيذانِ بأنّ المنّةَ للّه عليهم[5]، ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الحجرات: 17] بأن أنقذكُم ونجّاكم برحمتِه، لا بإيمانكُم. وتوسُّلُ المؤمنين إلى اللّه برحمته لأنَّها المصدرُ الأساسُ لخَلاصِهم وسَلامتِهم.

نُكْتَةُ إضافةِ الرّحمةِ إلى الله تعالى بضميرِ المخاطَبِ:

في القُربِ منه تعالى مزيدُ لطفٍ وعنايةٍ

قولُه: ﴿بِرَحْمَتِكَ﴾ من إضافةِ الاسمِ الظّاهرِ إلى ضميرِ الخطابِ العائدِ عليهِ سبحانَه، وفي هذهِ الإضافةِ مزيدُ بيانِ لطفِه تعالى وقُربِه؛ لأنّ المخاطَبَ قريبٌ، وفي القُربِ مزيدُ وُدٍّ وعنايةٍ.

(1) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 139.
(2) الهلال، تفسير القرآن الزّريّ: 11/129.
(3) وهو من معانيها المشهورة، يُنظر: ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 139.
(4) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 2/500.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/264.

سِرُّ تقديمِ شِبهِ الجملةِ ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿بِرَحۡمَتِكَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ قدّمَ شِبهَ الجملةِ ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾ على ما بَعْدَهُ معَ جوازِ تأخيرِه، وتقديمُ بعضِ المتعلّقاتِ على بعضٍ يجري على نَسَقٍ دقيقٍ، مِن مراقبةِ المعاني وتحرّي الدِّلالاتِ، وهو أنَّ التّقديمَ يكونُ بما هو أوثقُ بغرضِ الكلامِ، وأكثرُ صلةً بسياقِه الّذي يجري فيه[1]، وسرُّ ذلكَ الاهتمامِ أنَّ النّجاةَ إنمّا تكونُ برحمتِه تعالى، والتّقديمُ يُفيدُ الاهتمامَ وتأكيدَ سببِ النَّجاةِ، وهي الرَّحمةُ، ففي التّقديمِ تأكيدٌ أيضًا.

النّجاةُ إنّما تكونُ برحمتِهِ تعالى، وسببُ النَّجاةِ مؤكَّدٌ برحمتِهِ

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في الآيةِ دالَّةٌ على الفَصْلِ والتّمييزِ، وهو أحدُ معانيها[2]؛ فقد دَعَوا اللّه تعالى أن يُنجِّيَهم، أي: يُخلِّصَهم، ويَميِّزَهم مِنَ القومِ الكافرينَ، وهم قومُ فرعونَ الّذين كانوا يستعبدونَهُم، ويستعملونَهُم في خسيسِ الأعمالِ[3]، وهو ردُّ فعلٍ طبيعيٌّ لخوفهم مِن فرعون وقومه.

دَعَوا اللهَ تعالى أن يُخلِّصَهم ويَميِّزَهم مِنَ القومِ الكافرينَ

تكرارُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ مُعرَّفًا:

كَرّرَ لفظَ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ ووَصَفَه بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدّلالةِ على أنّهم بلغوا مبلغًا مِنَ الكُفْرِ بما ليس فيه أملٌ في رجوعِهم إلى جادّةِ الحقّ والإيمانِ؛ لأنَّ الكُفْرَ قد نزلَ منهم منْزلًا ثابتًا راسخًا، حتّى لابسهُمْ وتقوّمَ مع قوميَّتِهم، وصارَ مِن أُسسِها، وانتفاءُ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡمِ﴾ ممّا يُخفِّفُ مِن معنى الكفرِ فيهم؛ فيَغْدُو كأنّهُ غيرُ راسخٍ فيهم، وأنَّ الأملَ معقودٌ في إيمانهم، وحالُهم يُنبئُ عن غيرِ ذلك؛ فإنَّ الكفرَ مُتقوِّمٌ مُستقرٌّ فيهم.

نزلَ الكُفْرُ منهُم منْزلًا ثابتًا راسخًا حتّى لابَسَهُم

(1) أبو موسى، خصائص التّراكيب، ص: 367.
(2) أبو حيّان، ارتشاف الضَّرَب: 4/1720.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/171.

بلاغةُ المجازِ:

قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ ليسَ على نيّةِ الحقيقةِ، بل مِن بابِ المجازِ؛ فإنَّ دعاءَهُم بأن يُنَجِّيَهمُ اللّه مِن سُوءِ صنيعِ القومِ، ومِن أذى جوارِهم[1]، وليستْ نجاتُهم مِن ذاتِ القومِ؛ فالذَّواتُ لا تتَّصفُ بالسُّوءِ والأذى والضَّررِ، وإنّما فِعالُ القومِ وأحوالُهُم هيَ مَن تتَّصفُ بذلك.

دعاؤهم بالإنجاءِ مِن سُوءِ جِوارِ القومِ وصنيعِهم لا من ذَواتِهم

والتّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ على حذفِ مضافٍ، أي: مِن كيدِ القومِ، والتّعبيرُ عنِ التّنجيَةِ مِن ذواتِهم، يُرادُ منه المبالغةُ؛ للإيماءِ إلى سُوءِ حالِهم، وخُبْثِ أفعالِهم، ومَضَرَّةِ كَيدِهم[2].

صَوَّرَ سُوءَ حالِ القومِ وخُبْثَ صنيعِهم وضَررَ كيدِهِم

دلالة اللّام في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

اللّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ على معنى العهدِ؛ لأنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: فرعونُ وآلُه وقومُه السّائرونَ في فَلَكِه، وتحتملُ اللّامُ أن تكونَ للجنسِ والاستغراقِ، لتشملَ كلَّ كافرٍ، ويدخل فيهِ فرعونُ ومَن معهُ دخولًا أوليًّا[3].

اللّامُ للعهدِ، والكافرونَ فرعونُ وآلُهُ، وتَحتمِلُ الجميعَ فرعونَ وغيرَه

توجيهُ الوصفِ بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الكُفْرُ يعني التّغطيَةَ والسَّترَ، فوصْفُهُم بـ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: "القاصدينَ سَترَ الحقِّ بأباطيلهمُ الزّائغةِ، الكائدينَ الماكرينَ المُخادِعينَ"[4]، والتّعبيرُ بهذا الاسمِ دالّ على الثُّبوتِ؛ فإنّهم عريقونَ في تغطيةِ البراهينِ والأدلَّةِ[5] على وحدانيَّتِه تعالى.

هُمُ العريقونَ في سَترِ الحقِّ بأباطيلِهم الزّائغةِ

تراتبيَّةُ أوصاف فرعونَ ومَلَئِه:

رُتِّبَتْ أوصافُ فرعونَ ومَلَئِه في الآياتِ السّابقةِ على هذا النَّحو: ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾، ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾،

رتَّبَها مِنَ الأقلّ ضررًا وعِصيانًا إلى الأعلى، وكلُّ وصفٍ مُتضمّنٌ معنى ما قبلَه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/159.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/544.
(4) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/341.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/177.

﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهو ترتيبٌ مِنَ الأقلِّ ضررًا وعصيانًا إلى الأعلى؛ فبدأهُ بالإفساد، ثمّ الإجرام، فالإسراف، ثمَّ الظُّلم، وختمَه بجِماعِ ذلكِ كلِّه وهو الكُفْرُ؛ لأنَّ الكُفْرَ يتضمَّنُ الظُّلْمَ[1]، والظّلمُ يتضمَّنُ الإسرافَ، والإسرافُ إجرامٌ، والإجرامُ يتضمَّنُ الإفسادَ؛ فجاءت الأوصافُ على هذا التَّرتيبِ البديعِ.

(1) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 11/129.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»